السيد الشهيد محمد باقر الصدر
بين الدين والسياسة

الباحث
عبد الباسط خير الدين الخفاجي
وزارة النفط ـ شركة مصافي الوسط

السيد الشهيد محمد باقر الصدر بين الدين والسياسة

الباحث
عبد الباسط خير الدين الخفاجي
وزارة النفط ـ شركة مصافي الوسط

سيره عطرة:ـ

لقد شكلت حياة السيد الشهيد الأول محمد باقر الصدر الدينية والسياسية منعطفا مهما في تاريخ العراق الحديث إذ إن الفترة التي عاشها هذا السيد الجليل هي حافلة بالمآثر والصدامات مع السلطات الحاكمة آنذاك (١) من منا لا يعرف الشهيد الصدر الأول قدس فهو من عائلة علمية معروفة بالتقوى والعلم والأيمان ويرجع نسبه إلى الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي السجاد ابن الإمام الحسين ابن علي بن أبي طالب عليهم السلام فآباءه وأجداده كلهم مابين مرجع ديني ومجتهد وهذه أسرة نادرة فهو ابن عم السيد موسى الصدر مؤسس حركة أمل في لبنان وابن عم السيد الشهيد الصدر الثاني قدس سره.

فهو الابن الحادي عشر للسيد حيد الصدر وان لديه خمسة أخوه وأربعة أخوات قد توفوا جميعا عدا أخيه الأكبر السيد إسماعيل الصدر وأخته آمنه الصدر أسكنهم الله فسيح جناته، كما لديه ولد واحد هو السيد جعفر الصدر وخمسة بنات.

إن السيد محمد باقر الصدر هو مؤسس حزب الدعوة الإسلامي الذي اخذ على عاتقه الحفاظ على الهوية الإسلامية للشعب العراقي و الشباب العراقي من الانحراف والدخول في حزب البعث الذي أصدر فتوى بتحريم الانتماء إليه في ذلك الوقت في عقد السبعينات والثمانينات كما قال في المقولة الشهيرة

له (قال لو كان إصبعي بعثياً لقطعته كما حث الشباب على الانتماء إلى حزب الدعوة الإسلامي الذي يقوده مخاطبا الجماهير " أوصيكم بالدعوة فأنها أمل الأمة").

بداية وفاة والدة السيد حيدر الصدر وهو لم يبلغ من العمر حوالي (٤ سنوات) وينقل الشيخ النعماني(٢) وهو الذراع الأيمن للسيد الشهيد الصدر وزوج ابنته عند وفاة والده باتوا بلا عشاء واستمرت حالتهم تتدهور قرابة الشهر بسبب حالتهم المادية الصعبة.

وبعدها اخذ السيد إسماعيل الصدر الأخ الأكبر للسيد الشهيد رعايته لأخيه الأصغر وكان السيد الشهيد فطنا ذكيا يجلب الانتباه فكانت والدته تخاف عليه من أن يتعرض لمكروه وبعد أن أكمل الدراسة الابتدائية اتخذ قرارا أن يتجه إلى إكمال الدراسة في الحوزة العلمية في النجف الأشراف لاقى اعتراضا من بعض أفراد الأسرة فأصروا عليه أن يعدل عن قراره فرفض ذلك حتى أضطر إلى إضراب عن الطعام بسبب منعه من الذهاب إلى الحوزة وكان يلاحظ تدهور حالته الصحية يوما بعد يوم فنصحوه أن يكف عن الإضراب فرفض حتى يتحقق مطلبه المذكور وكان يذهب مع خاله من أسرة آل ياسين لحضور دروس في البحث الخارج على ما أتذكر فأعطى خاله الشيخ آل ياسين مسألة وطلب من الطلاب الإجابة عليها فلم يجب أي من الطلاب على هذه المسألة حتى أتى اليوم الثاني وجاء السيد الشهيد بالجواب فطلبه منهُ خاله أن يقرأه أمام طلاب الحوزة فاندهشوا الطلاب من ذكاء السيد الشهيد وجوابه.

ثم بعد ذلك أخذ يحضر في درس السيد الخوئي ويشكل على بعض أسئلة السيد الخوئي مما اطر بعض الأساتذة الذين لم يعرفوا السيد الشهيد اتهموه بغير المؤدب كما يذكر المؤلف لانهم يقولون كيف يشكل تلميذ على أستاذه فرد عليهم السيد الخوئي قائلا إنكم لا تعرفوه بلا إن إشكاله صحيح واخذ

برأيه وهذا ما أدهش الأساتذة والطلاب وهو في هذا العمر حتى قال له خاله لا يجوز لك التقليد فنال درجة الاجتهاد كما أيده السيد الخوئي وبعض المراجع في ذلك الوقت.

يذكر احد الشيوخ في الحوزة العلمية من أقرباء السيد الشهيد الصدر انه في الرؤيا ذاهب إلى زيارة الإمام الرضا عليه السلام فرأى الإمام الرضا يرتدي ملابس خضراء ويقول لأخته فاطمة المعصومة إن عائلة آل الصدر قدموا وضحوا من اجلنا كثيرا وسوف يرزقهم الله بولد سوف يصبح فيلسوف ومفكرا في عصره وهذا الكلام قبل ولادة السيد الشهيد الصدر.

بعد ولادة السيد الشهيد نذرت والدته إلى وجه الله تعالى نذرا أن تنفق في سبيل الله كل ما عندها من اجل سلامة السيد الشهيد لان للسيد الشهيد (٥اخوة و٤ أخوات توفوا بسبب المرض) فقالت والدته إن الموت اخذ منا كثيرا ثم قامت والدته بوفاء النذر وذات يوم تمرض السيد الشهيد مرضاً شديدا فعجزوا عن شفاءه وبعد الصباح الباكر أتى احد شيوخ الحوزة أيضا من المقربين لعائلة السيد الشهيد فقال (لهم إني رأيت الإمام صاحب العصر والزمان يتوضئا في بيتكم وبعد حين مسح على بطن السيد الشهيد واتيت لكم لمعرفة الرؤيا) وإذا بالسيد الشهيد يقوم من فراشه فتعجبوا لهذا الأمر وحمدوا الله وشكروه على شفاء السيد الشهيد الصدر الأول.

السيد الصدر والنبوغ العلمي:ـ

كانت علائم النبوغ بادية على وجهه منذ طفولته، وعلى سبيل المثال نذكر هذه القصة التي حدثت في بداية الحياة الدراسية للسيد الصدر وكان السيد الصدر يدرس عند الشيخ محمد رضا آل ياسين، وحينما وصل الأستاذ في بحثه إلى مسألة أن الحيوان هل يتنجس بعين النجس، ويطهر بزوال العين، أو لا

يتنجس بعين النجس؟

فذكر الشيخ آل ياسين أن الشيخ الأنصاري ذكر في كتاب الطهارة: أنه توجد ثمرة في الفرق بين القولين تظهر بالتأمل، ثم أضاف الشيخ آل ياسين: إن أستاذنا المرحوم السيد إسماعيل الصدر حينما انتهى بحثه إلى هذه المسألة، طلب من تلاميذه أن يبيّنوا ثمرة الفرق بين القولين، ونحن بيّنا له ثمرة في ذلك، وأنا أطلب منكم أن تأتوا بالثمرة غداً بعد التفكير والتأمل.

وفي اليوم التالي حضر السيد الصدر قبل الآخرين عند أستاذه، وقال له: إنّي جئت بثمرة الفرق بين القولين، فتعجب الشيخ آل ياسين من ذلك كثيراً، لأنه لم يكن يتصور أن حضور تلميذه إلى الدرس حضوراً اكتسابيا، وإنما هو حضور تفنني.

فبين سيدنا الصدر ثمرة الفرق بين القولين، وحينما انتهى من بيانه دهش الأستاذ من حِدّة ذكاء تلميذه ونبوغه، وقال له: أعد بيان الثمرة حينما يحضر بقية الطلاب، وحينما حضر الطلاب سألهم الشيخ: هل جئتم بثمرة؟ فسكت الجميع ولم يتكلم أحد منهم، فقال الأستاذ: إن السيد محمد باقر قد أتى بها، وهي غير تلك التي بيّناها لأُستاذنا السيد إسماعيل الصدر.

ثم بيّن السيد الشهيد الصدر ما توصل إليه من ثمرة الفرق بين القولين، وقد نفذ السيد بنبوغه هذا إلى صميم القلوب بصفته شخصية علمية وفكرية بارزة، وحاز على اعتراف فضلاء وعلماء.

الشهيد الأول والحوزة العلمية:ـ

لقد كان السيد الشهيد يحاول وضع الحوزة العلمية، الذي لم يكن يتناسب مع تطور الأوضاع في العراق ـ على الأقل ـ لا كماً ولا كيفاً، وكانت أهم عمل في تلك الفترة هو جذب الطاقات الشابة المثقفة الواعية، وتطعيم الحوزة بها.

إنَّ السيد الصدر كان يُعدَّ من المجتهدين الأساسيين في الحوزة العلمية في النجف مع دراية فائقة في حقلي الفقه وأصوله، فقد نصحه بعض أساتذته بالعدول عن دوره السياسي في حزب الدعوة، وكتاباته في مجلة "الأضواء" لكي يستطيع إنَّ يهيئ نفسه ليكون مرجعا أعلى للشيعة في المستقبل.(٣) ويبدو إنَّ الضغط بهذا الخصوص قد انصب عليه من المرجع الراحل السيد محسن الحكيم كما أنَّ أطرافاً عديدة في المجتمع قد وجهت انتقادات كثيرة لدور السيد الصدر السياسي وتورطه بالمنظمات السياسية.

فقد قام أشخاص عديدون يضمنهم حسين الصافي(٤) بحملات خبيثة واسعة لثني الصدر عن ممارساته السياسية بدعوى أنَّها كانت تضر الحوزة العلمية ورفعوا شكوى بهذا الخصوص إلى السيد الحكيم نفسه(٥) كما انضمت شلة من جماعة العلماء إلى هذه الحملة وأعربوا عن عدم رضاهم لدور السيد الصدر(٦).

وكانت مقالات السيد الصدر الافتتاحية في دورية "الأضواء" من أكثر الطروحات المثيرة للجدل حيث إنَّ هذه المقالات التي كانت تحمل افتتاحية باسم "رسالتنا" تحمل دوماً مغزًى سياسياً. فقد بدأت تساؤلات أعداء السيد الصدر تنطلق من ناحية فيما إذا كانت هذه الطروحات السياسية تمثل وجهة نظر جماعة العلماء ككل أم تمثل رأي السيد الصدر نفسه. وقد ضغط السيد الحكيم من خلال ابنه السيد مهدي على السيد الصدر للتنحي عن دوره كفقيه لحزب الدعوة وعن كتابة افتتاحيته في "الأضواء".(٧) ويبدو إنَّ عاملاً آخر كان أكثر أهمية هو الذي اجبر السيد الصدر على الاستقالة ألا وهو مستقبله القيادي في المرجعية والحوزة، حيث أنَّ نوعية المناخ الديني في الحوزة لا يسمح بتسلم المرجعية العليا لمجتهد ذو نشاط سياسي، ناهيك عن إنَّ يكون عضواً في حزب سياسي. فعادة ينتخب المرجع من بين مجموعة من كبار المجتهدين الذين

لهم الريادة في علمي الفقه وأصوله. وكان للسيد الصدر جدارته ومكانته في تدريس هذين العلمين في الحوزة ولسنين طويلة، وكذلك من خلال إصدار بحوثه وأفكاره الفقهية. وحيث إنَّ طريقة الصعود في سلم المرجعية تعتمد بدرجة كبيرة على مباركة المجتهدين والمدرسين الكبار في الحوزة العلمية. وعليه فإنَّ أمل السيد الصدر في الارتقاء إلى هذا الدرجة الرفيعة في الحوزة العلمية سيكون ضعيفاً جداً في حالة استمراره في عمله الحزبي المكشوف ونشاطه السياسي المعلن.

ومن ذلك الحين انصرف السيد الصدر إلى حياة الحوزة الرتيبة مخففاً بذلك نشاطه السياسي والحركي المكشوف التي قد تضر بمكانته المرجعية في المستقبل، إلى الحد الذي جعله يرجئ إصدار كتابه "مجتمعنا" الذي طال انتظاره لأنَّه وحسب مصادر مقربة أليه، لم يجد أنَّ الوقت كان سانحاً لمثل هكذا عمل.(٨) وعلى الرغم من ذلك وحسب مصادر حزب الدعوة فإنَّ السيد الصدر أبقى على قنوات الاتصال بينه وبين الحزب مفتوحة وبالخصوص مع احد تلامذته (٩) وكما يعقب السيد فضل الله على ذلك بان السيد الصدر كان يبدي نصائحه ومشورته لمقربيه وزملائه حول شؤون الحزب وافتتاحية "الأضواء"(١٠).

ونتيجة لذلك تحول جهد السيد الصدر للتطوير في الحوزة نفسها، وأدرك ضرورة تعديل مناهج الدراسة. فحوزة النجف على سبيل المثال، كانت ومنذ مائة وخمسين عاما تركز على الفقه وأصول الفقه وذلك بسبب بروز مفكرين عظام في هذين الموضوعين في النجف مثل مرتضى الأنصاري، الخراساني والنائيني، وحيث إنَّ الاجتهاد يرتكز على التمكن من موضوعي الفقه وأصوله بينما تعد المواضيع الإسلامية الباقية قليلة الأهمية وليست ذات قيمة، وبناءً على ذلك كان أساتذة الحوزة يركزون في تدريسهم على هذين

الموضوعين فقط.

كذلك لم يشعر السيد الصدر بالرضا بالوضع الدراسي الأكاديمي في الحوزة وأبدى امتعاضه من انعدام مسؤولية الطلبة تجاه دروسهم وعدم انتظام دوامهم، واقترح أنَّ ينجح الطالب في دروسه المقررة ويجتاز امتحانا بهذا الشأن قبل إنَّ يعطى لقب عالم دين.(١١) واقترح بإعداد كتب مقررة للطلاب للدراسات الحوزوية ليست على نمط الكتب الكلاسيكية الحالية التي لم تكن مخصصة للتدريس بأي حال من الأحوال، وإنما هي نتاجات فكرية لمؤلفيها ليس إلا. وطبقاً لرأي السيد الصدر فإنَّ الكتب المقررة يجب إنَّ يتوخى فيها مقدار استيعاب الطالب وفهمه للموضوع بطريقة متسلسلة من أسس وقواعد الموضوع إلى آخر ما استجد فيه. ولم تقتصر مقترحات السيد الصدر على الكتب المقررة وإنما تعدتها إلى طريقة الدراسة واستحداث آلية الامتحانات النوعية. فقد اقترح السيد الصدر إنَّ يؤخذ بنظام المقررات على طريقة الجامعات الغربية حيث يجتاز الطالب المواضيع المطلوبة منه من خلال نجاحه في امتحانات تحريريةً وليست شفويةً حسب ما جرت عليه العادة في الحوزة العلمية.

ومحاولة منه لتطبيق مقترحاته تلك شارك السيد الصدر وبصورة فعالة في إنشاء كلية أصول الدين في بغداد عام ١٩٦٤ ووضع مناهجها بنفسه وكتب ثلاثة كتب مقررة لها في مجالات علوم القرآن، وأصول الفقه، والاقتصاد الإسلامي، لكي تدرس في السنتين الدراسيتين الأولى والثانية(١٢) فمحاولاته لتطبيق إصلاحاته تلك على الحوزة قد واجهت مقاومة شديدة من كل الطلبة والمؤسسة الدينية. فعلى سبيل المثال كان المرجع السابق السيد محسن الحكيم معروفاً بمعارضته لتأسيس كلية الفقه في النجف التي قام بإنشائها الراحل الشيخ محمد رضا المظفر. كما إنَّ السيد الصدر لم يكن يزمع بتطبيق إصلاحاته

في الحوزة على الدراسات المتقدمة أو ما يسمى بالبحث الخارج، وإنما كان يطمح بتطبيقها على المراحل الابتدائية من الحوزة (مرحلة المقدمات والسطوح). ويبدو إنَّ السيد الصدر كان يشارك آراء الأغلبية من مراجع ومجتهدي الشيعة بأنَّ مستوى التدريس في البحث الخارج كان متقدماً ويمثل أفضل طريقة للتحصيل العلمي على أفضل المستويات.

يمكن إنَّ تُعزى قلة نشاط السيد الصدر السياسي في منتصف الستينات إلى درجة الاستقرار المعتدلة في النظام السياسي في العراق. فقد تم تصفية الزعيم عبد الكريم قاسم اثر الانقلاب الدموي الذي جرى ضده في ٨ شباط عام ١٩٦٣م والذي أشعلت شرارته معارك دموية بين القوى التي كانت تسيطر على الشارع العراقي وقتذاك (الشيوعيون والقوميون العرب) ولم يكن لدى الانقلابيين الجدد الذين كان يترأسهم عبد السلام عارف والبعثيين، أيُّ وازع للرحمة واستطاعوا تصفية خصومهم من الشارع والحكومة بقسوة وبطش شديدين. وبعد تسعة أشهر من ذلك التأريخ تخلص عارف من رفاقه البعثيين وطردهم من سدة الحكم.

وقد استطاع عارف أنَّ يوظف استياء وسخط الشعب العراقي تجاه البعثيين وطرقهم التعسفية لصالح نظامه، فضلاً عن ذلك فقد حاول ألا يصطنع معارضة جديدة لنظامه.

وعلى ضوء ذلك حاول النظام العسكري أنَّ يحسن علاقاته مع الشيعة وقياداتهم بالرغم من أنَّ نسبتهم في الحكومة الجديدة كانت ضئيلة جدا، وبقي السنة وهم الأقلية في المجتمع العراقي مسيطرين على مؤسسات الدولة العسكرية والمدنية. فضلاً عن ذلك حاول عارف، قائد الانقلاب، أنَّ يحصل على مباركة المؤسسة الدينية الشيعية لنظام حكمه فقام بزيارة آية الله الحكيم، ولكن الأخير خيَّب آماله بالتعاون وإعطاء الشرعية، على الرغم من إنَّ النظام

العارفي الجديد قدم خدمة جليلة من خلال تصفية عدوين لدودين للمرجعية الدينية والحركة الإسلامية ألا وهما البعثيون والشيوعيون. وعلى أيّ حال فقد بقيت العلاقات بين السيد الحكيم والأخوين (عبد السلام وعبد الرحمن عارف) ودية نوعاً ما طيلة فترة حكمهما.(١٣) تعدُّ المدة المحصورة بين سنتي ١٩٦٤-١٩٦٨ الفترة الذهبية في عمر الحركة الإسلامية الشيعية الحديثة (١٤)حيث خلت من عمليات البطش والإرهاب التي كانت تمارسها الحكومات المتعاقبة على الحكم في العراق وازداد أعضاء حزب الدعوة، وخصوصاً في الجامعات وبين طبقة المفكرين والمثقفين وحسب مصادر حزب الدعوة كانت توزع أكثر من ١٥٠٠ نسخة من صحيفة الحزب السرية، "صوت الدعوة"، على الأعضاء والمناصرين في جامعة بغداد وحدها. وكان الطلبة من الحركة الإسلامية يقومون بتنظيم مسيرات تدعى "مواكب الطلبة" في ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام معبرين عن تضامنهم للحزب. وفي الوقت نفسه وسع السيد الحكيم من نفوذه بزيادة نسبة الطلبة العرب المسجلين في الحوزة سنوياً.

في هذا البيئة ذات الهدوء السياسي النسبي، أرادت المرجعية بوضع خطة لتأسيس جامعة الكوفة التي يؤمل إنّ تقوم بتأهيل الشباب الشيعة في الخبرات العلمية والدينية لإعدادهم في إدارة الشؤون المدنية والسياسية للمجتمع بعد تخرجهم. كما وتم فتح مراكز دينية ومكتبات عامة في العديد من المدن العراقية والتي اشرف عليها ممثلون ووكلاء عن المرجعية الدينية. وقام جماعة من علماء الدين في الكاظمية (إحدى ضواحي العاصمة بغداد) بتأسيس جماعة لهم تماثل جماعة علماء النجف أطلقوا عليها علماء بغداد والكاظمية(١٥)في تلك الفترة كان السيد الصدر يعمل على جبهتين، في الأولى كان يهيء نفسه للمرجعية على المستقبل البعيد،(١٦) بينما على الجبهة الثانية كان تأثيره يتزايد

على مرجعية السيد الحكيم وعلى مجمل قرارات حزب الدعوة. وفي تلك الفترة بدأ السيد الصدر بتركيز موقعه العلمي في الحوزة من خلال إعطاء دروس منتظمة على الطريقة التقليدية في الفقه والأصول لطلبة البحث الخارج.(١٧) وخلال تلك الفترة تخرج الكثير من طلبته من مختلف البلدان الذين روجوا لمكانة السيد الصدر العلمية في مناطقهم. وهذا ما وسع من شهرة السيد الصدر وازدادت شعبيته بصورة أكبر من ذي قبل في الأوساط الدينية والأمة بصورة عامة، وهو أمر ضروري لتولي الصفة المرجعية إذا أراد لفتواه بالانتشار والتأثير على الوسط الشيعي. كما وأصبح السيد الصدر من أبرز مستشاري السيد الحكيم في الشؤون السياسية والاجتماعية مع العلم أنَّه محسوب على مرجعية السيد الخوئي. ففي كثير من الأحيان كان السيد الصدر هو الذي يكتب مسودة خطابات وبيانات السيد الحكيم حول الأحداث السياسية والتي كان يزمع إلقاءها أحد وكلائه في تجمعات جماهيرية باسمه(١٨).

التصعيد السياسي:ـ

أذنت عودة البعثيين إلى السلطة في ١٧ تموز عام ١٩٦٨ إلى تصعيد المواجهة بينهم وبين القيادة الشيعية إلى مستويات أعلى. ويتذكر حكام البعث جيدا الموقف السلبي الذي اتخذه تجاههم قادة الحركة الإسلامية الشيعية عندما تمت تصفيتهم من قبل النظام ألعارفي أعقب انقلاب الثامن من شباط عام ١٩٦٣م. فحتى السيد الحكيم الذي أصدر فتواه المشهورة بحق الشيوعية، والتي وصفها بأنها كفر والحاد وحرم على المسلمين بالانضمام للحزب الشيوعي، لم يعطِ حزب البعث أيّ دعم يذكر عندما قادوا بتصفية كوادر وأعضاء الحزب الشيوعي عقب الانقلاب. وفي تلك الحقبة كان حزب الدعوة من أكثر الأحزاب السياسية انتشاراً وخاصة إبان حكم عبد الرحمن عارف، وبعد

سقوط حكم البعثيين الأول في عام ١٩٦٣.

وعند عودتهم في سنة ١٩٦٨ كان البعثيين يواجهون زعيمين شعبيين يفوقونهم مكانةً وتأثيراً في أوساط الشعب العراقي، وهما السيد محسن الحكيم والملا مصطفى البر زاني، الأول الذي يتزعم الشيعة والآخر الأكراد في شمال العراق. وأحس قادة النظام البعثي الجديد إنَّ استقرار حكمهم يعتمد بالكامل قوة الإرادة والصمود أمام هذين الثقلين المركزيين. وبما أنَّ البر زاني كان ميالاً للدخول في حوار مع النظام الحاكم لإيجاد حل للمشكلة الكردية، فقد استطاع حزب البعث ليس فقط بالتفاوض معه وإنما مع بقية الأحزاب اليسارية، وبضمنها الحزب الشيوعي والقوميين العرب، واتفقوا على تشكيل جبهة وطنية سيرها النظام وفق إرادته، ولكن لم ترغب أيّ من القيادات الدينية الشيعية والسنية، ولا أيّ من المحسوبين على مرجعية السيد الحكيم بالدخول بحوار مع نظام البعث. وقد حاول النظام وفي أكثر من مرة الطلب من السيد مهدي الحكيم (الذي كان يمثل والده السيد محسن الحكيم في بغداد منذ عام ١٩٦٤) القيام بزيارة هدفها إعلامي لمقابلة الرئيس احمد حسن البكر ولكن طلبهم يواجه بالرفض في كل مرة عندها لجأ النظام البعثي إلى حملة واسعة لحل المؤسسات الدينية الشيعية منها والسنية على السواء. والواقع إنَّ النظام لم يكن له خيار آخر حيال هذه المؤسسات فهو على طرف نقيض منها. نظراً لتنامي القوة التنظيمية والاتساع الجماهيري للحركات الدينية في القطر على حساب ما يدعو له النظام السياسي من فكر قومي وعلماني. فإذا أريد لإيديولوجية النظام وفكرة السياسي من الصمود ولحكمه في البقاء فما عليه إلا أن يحشر الطرف الديني المقابل في زاوية ضيقة أو الإجهاز عليه في النهاية.

ولجأ النظام البعثي في البداية إلى إتباع سياسات راديكالية ذات تأييد جماهيري يطرب لها الشعب ويستحسنها، إلا وهي العداء للصهيونية وتحرير

فلسطين ومناهضة الأنظمة التي وافقت على الحل السلمي مع إسرائيل، وإعدام الجواسيس، وتمتين العلاقات مع دول المعسكر الشرقي والدول عدم الانحياز، وتقديم يد العون للحركات الثورية في العالم الثالث، وتأميم امتيازات شركات النفط الغربية في العراق، وغيرها من السياسات البراقة ذات الصدى الإعلامي المقبول في الدول العربية.(١٩) وخطا النظام في تلك الفترة أيضاً خطواته الأولى في طريقه لتقليص نفوذ المؤسسة الدينية الشيعية وذلك بإغلاقه المدارس الدينية وبالتحديد مدارس "الجوادين" الابتدائية منها والثانوية، وكذلك إغلاق كلية أصول الدين، ومصادر الأرضي والأموال المخصصة لبناء جامعة الكوفة، ومنع إصدار مجلة "رسالة الإسلام" (وهي المجلة الدينية الوحيدة في القطر التي سمحت بها الرقابة الأمنية للأنظمة العسكرية)، ومنع مواكب الطلبة (وهي الشعائر الدينية التي كان يقوم بها طلبة الجامعات في ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام)، وتسفير مئات الطلبة غير العراقيين الذين كانوا يدرسون في الحوزات العلمية، وتطبيق قانون الخدمة العسكرية الإلزامية على طلبة العراقيين في الحوزة العلمية الدينية والذين كانوا معفوين منها سابقاً.

وبالرغم من شمولية الإجراءات إلا أنها كانت محدودة الهدف ألا وهو التحديد من نشاط وفعاليات الحركة الإسلامية الشيعية التي يظهر من أنَّ قيادتها قد أخذت على حين غرة، حيث إنَّ ردود فعلها كانت غير منسقة وغير منسجمة مع طبيعة الإجراءات التي اتخذتها حكومة البعث. بعض ردود الفعل هذه كان الاجتماع الذي دعت إليه جماعة العلماء (التي تمثل جُل النشطاء والحركيين السياسيين في المؤسسة الدينية) والذي عقد في بغداد - العاصمة، للتشاور حول الإجراءات والهجمة السافرة التي تشنها الحكومة(٢٠) وكان من جملة قراراته هو دعوة السيد الحكيم السفر إلى بغداد وتعبئة الجماهير ضد

إجراءات حكومة البعث.

وبالفعل ألتزم السيد الحكيم بالمبادرة وأنتقل للإقامة في الكاظمية حيث بدأ باستقبال جماهير المريدين الذين عبروا عن تأييدهم وولائهم له. بعدها توجه السيد الصدر إلى لبنان، حيث يرأس ابن عمه وشقيق زوجته، السيد موسى الصدر، المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى واستعمل مكتبه لتنظيم الاحتجاجات الشعبية من الخارج ضد النظام العراقي كما بعث السيد موسى الصدر برقيات إلى رؤساء الحكومات والمؤسسات الإسلامية يحثهم فيها على التدخل ضد المضايقات التي تتعرض لها القيادة الدينية في النجف ولكن الرد عليها كان مخيباً للآمال ولم تتخذ أيّ إجراءات مناسبة،(٢١) سوى برقيات التضامن والتعاطف من جمال عبد الناصر وملك السعودية الملك فيصل والرئيس اليمني الإيرواني، ورئيس الجماعة الإسلامية في باكستان، أبو الأعلى المودودي.

ونتيجة لذلك عاد السيد الصدر إلى العراق بالرغم من الخطر المتزايد باعتقاله نتيجة نشاطه المضاد للحكومة في لبنان. وقد اقترح حزب الدعوة من طرفه على السيد محسن الحكيم تنظيم المظاهرات وإغلاق السوق الرئيس في بغداد. وقد رفض السيد الحكيم الخطة بأكملها على أساس أنَّ الحزب لم يكن مهيئاً بعد لعمل مثل هذا مع الأخذ بالحسبان الإجراءات القمعية السريعة التي قد يقدم عليها النظام.(٢٢) وبمجرد رجوع السيد الصدر إلى العراق قام، وبالتنسيق مع جماعة العلماء بالكاظمية وبغداد علماء النجف بتنظيم تجمع جماهيري حاشد في مرقد الإمام علي (ع) في النجف تضامنا مع السيد الحكيم وتنديداً بتصرفات النظام ضده.

وقد ألقى السيد مهدي الحكيم كلمة نيابة عن والده السيد محسن الحكيم كانت بالواقع من بُنات أفكار السيد الصدر الذي كتب مسودتها بنفسه(٢٣)

وطبقا لما أورده السيد مرتضى العسكري كان من المقرر القيام بنشاط أوسع من ذلك وهو تنظيم مظاهرة شعبية تضامناً مع السيد الحكيم في إحدى ضواحي بغداد.(٢٤) ولكن حكومة البعث بادرت، وقبل تنفيذ المخطط بإعلانها عن كشف محاولة لقلب نظام الحكم بواسطة ضباط كبار، ورجال أعمال شيعة مرتبطين بإيران والغرب (الولايات المتحدة وإسرائيل) واتهام السيد مهدي الحكيم بأنّه كان الرأس المدبر للانقلاب(٢٥) لم تفلح حكومة البعث باغتيال السيد مهدي الحكيم سياسياً بهذه المكيدة فحسب، وإنما وضعت كل الحركة الإسلامية الشيعية في موضع الدفاع عن نفسها وشتت قوتها الجماهيرية.

وعلى ضوء ذلك تم تهريب السيد مهدي الحكيم خارج العراق وسافر السيد مرتضى العسكري إلى لبنان، وانسحب السيد محسن الحكيم إلى النجف وتوفي بعد اشهر قليلة وتسلم بعده مقاليد المرجعية السيد الخوئي الذي رفض التورط بأي نشاط سياسي ضد حكومة البعث.(٢٦)

علم زاخر:ـ

في خضم تلك الأجواء الصعبة والمضطربة التي كانت تواجه المؤسسة الدينية بدأ السيد الصدر بإلقاء محاضرات عن دور أئمة أهل البيت عليهم السلام وتعاليمهم مع الأنظمة الجائرة في أزمانهم. وقد بين أنّ الأئمة (عليهم السلام) كلهم كانت لديهم خطة سياسية عظيمة وموحدة إلا وهي تهيئة الأرضية لإقامة حكم عادل وبذلك يحفظون الإسلام ويصونون نقاءه على الرغم من أنّ أدوارهم كانت متباينة من إمام إلى آخر. خلاصة ما كان يريده السيد الصدر هو تذكير طلاب الحوزة بان الإنسان يجب إنّ يعي ويتفهم الظروف التاريخية التي يعيشها ويتصرف طبقاً لما تمليه عليهم الأحداث والأزمات.

فتوجد هنالك آليات عديدة يستطيع المرء فيها أنَّ يحقق هدفه من خلالها وقد لا يكون الاصطدام المباشر والمفتوح مع الحكام دائماً وبالضرورة لمصلحة الإسلام، وقد تكون الأساليب السلمية في مقاومة القهر والاستبداد من أحسن الخيارات السياسية في مواجهة الأحداث والتعامل مع الظروف حيث يتوقع منها ألا تؤدي إلى تهديد مباشر للحركة الإسلامية و قاعدتها. فبعض مثلاً أنَّ بعض الأئمة المعصومين عليهم السلام كالإمام السجاد عليه السلام أتخذ من وسيلة الدعاء لتصحيح الفساد الذي يعاني منه المجتمع، وآخرين لجأوا إلى تدريس الفقه والسنة المطهرة (كالإمامين الباقر والصادق عليهما السلام) بينما تقبل الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد في زمن المأمون، وكل ذلك لأجل التغلب على القهر الاستبدادي الذي يتعرض له الشيعة. ومضى السيد الصدر أبعد من ذلك عندما طرح فكرة تجدد النبوات السماوية المنزلة من قبل الباري عز وجل على الأنبياء حسب ظروفهم التاريخية. وقد نشرت هذه المحاضرات في كتاب تحت عنوان "أهل البيت، تنوع الأدوار، ووحدة هدف".

وألقى السيد الصدر محاضرات أخرى لمعالجة حالة الحرمان والكبت السياسي. فمن زاوية كان السيد الصدر يركز فيها على قوة إرادة الإنسان المؤمن كأداة وحيدة لاستمرارية الرسالة المحمدية وبناء الإسلام، وحث على عدم الانكسار النفسي والخنوع بوجه المآسي العنيفة، حيث إنَّ الصعاب المختلفة التي تمر بحياة الأمة والإنسان هي محصلة طبيعة للصراع التاريخي العادل. وفي كل المراحل التاريخية سوف يكون البقاء للأصلح في نهاية المطاف، وهذا النجاح يعتمد بالدرجة الأساس على مدى تفاني الإنسان المؤمن وقدرته على الاستمرار بمواجهة الصعاب. وذكر أخوته الشيعة بمآسي الأكراد في شمال العراق وكيف يواجهون مصاعب ومحن في غاية القسوة والضراوة، وشدد على مدِّ يد العون والمساعدة إليهم بكل طريقة ووسيلة

ممكنة. وإنَّ المصاعب والمحن التي يعانيها المسلمون كلهم يجب أنَّ تعامل كمحنة واحدة يحس ويتألم لها الجميع. وقد نشرت هذه المحاضرات تحت عنوان "المحنة"(٢٧)

الشهيد الصدر ومواجهة البعث

في مطلع عام ١٩٧٧ أقدم نظام البعث الحاكم على خطوة من أجرأ خطواته للحد من الشعائر الدينية الشعبية وذلك بمنعه مراسيم عزاء الإمام الحسين عليه السلام.

وفي الواقع إنَّ النظام ومنذ عام ١٩٧٠ كان يحاول وبدون جدوى منع هذه المراسيم وخصوصا في المدن المقدسة مثل كربلاء والنجف. فقد سعى النظام في ذلك العام على استعمال كل الوسائل الممكنة على منع مواكب العزاء التي تنطلق كل عام من النجف إلى كربلاء سيراً على الأقدام.

وتنطوي أهمية هذا الشعائر على المراسيم المرافقة لها، حيث ينطلق آلاف المعزين باستشهاد سيد شباب أهل الجنة قادمين من كل أنحاء العراق ولعدة أيام مشياً على الإقدام مسافة خمسين ميلاً مثيرين بذلك المشاعر الحزينة والعاطفية وكذلك مثيرين حفيظة النظام الذي يعتبر مثل هذه الشعائر الدينية تحديا صارخا لأيديولوجيته العلمانية الذي صمم على القضاء على الروح الدينية لدى الشعب العراقي. كما إنَّ هذه المواكب الحسينية تعطي دعماً وتعزيزاً لمقام المرجعيات الدينية التي تعطيها دعماً شعبياً ظاهراً.

لم يثن قرار النظام بمنع مواكب العزاء لا الشعب ولا الجهات المنظمة لها من العدول عن تقليدها وأصروا على الخروج في الموعد المحدد للموكب في صفر من عام ١٣٩٧ هجرية.(٢٨) وقد وزع منظمو المواكب منشورات تدعو الشعب للمشاركة في العزاء وتحدي السلطة الجائرة.(٢٩) وبعكس مراسيم

السنين السابقة فقد أثارت قرارات السلطة الشعب وأدى إصرارهم على الخروج في المواكب إلى اضطرابات كبيرة في مدينة النجف.

وبالرغم من المحاولات اليائسة للسلطة وتنظيم حزب البعث لحمل الجماهير على عدم الخروج في المواكب الحسينية وذلك بإقامة التجمعات والمهرجانات إلا أنَّ كل تلك الجهود باءت بالفشل وانتهت بالفوضى(٣٠) ومضت المسيرة في موعدها المقرر وخرج فيها ما يقارب الثلاثين ألف مشارك يحملون الرايات والشعارات الدينية وفي مقدمتها آيات قرآنية منها ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ و﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.(٣١)

لم تستطع قوات أمن النظام وشرطته من السيطرة على الحشد الجارف الذي اندفع من النجف وإيقافه. وعندما كان الموكب يتقدم نحو مدينة كربلاء وأصبح على بعد عشرة أميال منها كان النظام لا يزال في حيرة من أمره، وهل سيترك المشاركين في الموكب يدخلون المدينة ويتحمل مرارة الهزيمة والانكسار، أم يمنعهم من دخولها بأي قوة كانت؟

وكوسيلة لإنقاذ ماء وجهه لجأ النظام أولاً إلى التحاور مع قادة الموكب،(٣٢) بواسطة مجموعة من علماء الدين البارزين منهم السيد محمد باقر الحكيم وأعلن النظام استعداده للسماح للمسيرة بأن تمضي وتدخل مدينة كربلاء ورفع الحظر المفروض عليها بشرط أنَّ يمتنع المشاركون عن إطلاق الهتافات المناهضة للسلطة.(٣٣) ولكن مشاعر الكراهية والرفض ضد النظام كانت إلى درجة من الحدة والقوة لدى المشاركين بحيث أجهضت أيّة فكرة الحوار والتشاور مع الوفد الذي أرسله للتوسط. عندها لجأ النظام إلى تحريك لواء كامل من الجيش تعززه الدبابات وطائرات الهليوكوبتر والطائرات الحربية المقاتلة.(٣٤)

بالرغم من هذه الإجراءات كلها استطاع المئات من المشاركين في الموكب من دخول مدينة كربلاء بسبب تعاطف العديد من الضباط والجنود معهم ورفضهم إطلاق النار على مواطنين مسالمين، كل ذنبهم أنهم كانوا مشتركين في موكب ديني ! ويطلقون الهتافات الدينية. ولكن النظام لم يستسلم لهؤلاء فحشد لهم ما كان متوفراً لديه من كادر حزبي ورجال الأمن والشرطة واعتقال أعداد أخرى.(٣٥) وقد قامت الحكومة الجائرة بتشكيل محكمة خاصة أطلق عليها محكمة الثورة ترأسها ثلاثة من قادة الحزب البارزين(٣٦) لمحاكمة منظمي الموكب وقيادته البارزة وكعادة النظام بمعالجة الانتفاضات الشعبية وفي مثل هذه المحاكمات الصورية تم إصدار الأحكام الجائرة وذلك بإعدام سبعة من منظمي المواكب والسجن المؤبد على خمسة عشر شخصاً ومن ضمنهم السيد محمد باقر الحكيم.

وقد أثرت هذه الانتفاضة على هيكلية النظام وأدت إلى تصدعه حيث انقسمت قيادة الحزب العليا إلى فريقين. فقد أتهم الطرف المتشدد في النظام بعض الأعضاء البارزين في حزب البعث بالتهاون والتردد، بينما اتهم الطرف الآخر بأن السلطة استعملت وسائل غاية في العنف والقسوة ضد المشاركين في الموكب لم يكن لها من داع لاستعمالها أصلاً. وقد تغلب الفريق المتشدد الذي كان يقوده صدام والبكر على الفريق المعتدل وتم إبعادهم وطردهم من الحزب ومناصب الدولة شر طرده، بضمنهم أعضاء المحكمة الخاصة التي حاكمت قيادة المواكب الحسينية بحجة إنَّ أحكامهم كانت متهاونة وغير رادعة.(٣٧) وقد أثار حكم سجن السيد محمد باقر الحكيم سخطا شعبياً واسعاً وخصوصاً في أوساط الحوزة العلمية. وقد أرسل الإمام الخوئي وفداً إلى القصر الجمهوري للمطالبة بإطلاق سراحه. وقد تم تخفيف الحكم من المؤبد إلى سنين قليلة ولم يمض وقت طويل حتى أطلق سراحه ضمن العفو العام عن السجناء

السياسيين في تموز ١٩٧٨م.

وفي كل الأحوال كان النظام يشك بضلوع السيد الصدر بالانتفاضة التي رافقت المواكب الحسينية خصوصاً وأنها كانت منظمة تنظيماً جيداً مما أوحى للنظام بعلاقة الانتفاضة بحزب الدعوة المحظور. وفي الحقيقة، وحسب ما تنقله أدبيات حزب الدعوة، فإن خطة الانتفاضة كانت قد رسمت بواسطة فروع الحزب في النجف وكربلاء(٣٨) كما تبين للنظام بأنَّ السيد محمد باقر الحكيم الذي أرسله النظام للتفاوض مع قادة الانتفاضة هو بالفعل ممثلاً شخصياً للسيد الصدر وأحد اقرب المقربين إليه، يعود له فشل المفاوضات في إقناع قادة الانتفاضة في العدول عن قرارهم باستمرار المواكب بحكم كونهم على علاقة بحزب الدعوة ويتلقون أوامرهم من السيد الصدر. وهذا ما أثار شكوك النظام بأن مؤامرة ما قد حيكت بواسطة السيد الصدر، الأمر الذي أدى إلى اعتقاله بواسطة أجهزة الأمن واقتياده إلى بغداد للتحقيق معه وقد أطلق سراحه بسرعة خوفاً من إثارة اضطرا بات جديدة تطالب بإطلاق سراحه خصوصاً وأنَّه في تلك المرحلة كان السيد الصدر قد أصبح مرجعاً دينياً شهيراً يشار إليه بالبنان(٣٩)

وقد كشف السيد محمد باقر الحكيم لاحقاً أنَّ السيد الصدر قد خطط لإثارة انتفاضة أخرى تؤدي إلى اعتقاله بواسطة السلطة وقد تقود إلى إعدامه. ولكن السيد باقر الحكيم لم يوضح لماذا عدل السيد باقر الصدر عن خطته تلك.(٤٠)

النهاية الدموية الحاسمة:ـ

في الوقت الذي تنفس فيه قادة النظام ألبعثي الصعداء بقضائهم على انتفاضة صفر سنة ١٩٧٧ وحسبوا أنهم قد قضوا ولسنين طويلة قادمة على المعارضة الدينية اهتزت الأرض تحت أقدامهم مثلما اهتز العالم ككل بثورة

البركان المتأجج في إيران والمهددة بزعزعة الأنظمة في المنطقة والتي كانت تصبوا إلى عصر من الاستقرار السياسي.

بحلول عام ١٩٧٨ اندلعت ثورة إسلامية ضد نظام الشاه القوي المدعوم من قبل الولايات المتحدة وكان هذا التحرك الجماهيري الثوري تقوده مرجعية دينية مركزها النجف. ومرة أخرى تحتل هذه المدينة المقدسة موقع الصدارة في الأحداث ليس كونها مركز للزعامات الشيعية الدينية، وإنما كمركز اضطرابات سياسية.

وعلى الرغم من أنَّ هذه الثورة لم تكن موجهة ضد نظام البعث الحاكم في العراق إلا أنَّ هذا النظام قد أحس بنذير الرعب والمتاعب القادمة منها. وكان الإمام الخميني قائد الثورة الإسلامية يعيش في النجف طيلة السنوات الأربع عشر الأخيرة مستفيداً من عداوة نظام البعث للشاه لينطلق بحملته الواسعة ضد النظام الملكي في إيران. وقد سمحت له السلطات البعثية بإيصال نداءا ته السياسية المعارضة إلى الشعب الإيراني عن طريق الإذاعة العراقية الناطقة باللغة الفارسية وهذا بدوره فتح منافذ عديدة للإمام الخميني للاتصال مع حلفاءه السياسيين والقادة الميدانيين في إيران.

ولكن شهر العسل هذا لم يدم طويلاً. فبعد اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ التي وقعها الشاه مع صدام حسين، والتي أنهت الصراع بين النظامين وتم قطع هذه المساعدات عن الإمام الخميني. والأهم من ذلك أنَّ هذه المحاباة من قبل النظام على الرغم من قصرها لم تدفع الإمام الخميني إظهار أيّ من مشاعر الود والتعاطف تجاه النظام الحاكم خصوصاً وأنَّه عايش وشهد بأم عينه حملات الاضطهاد والتعسف التي مارستها السلطة البعثية بحق الحوزة العلمية في النجف وخصوصاً القيادة الدينية للشيعة. وفي مرات عديدة كان الإمام الخميني يعبر عن سخطه واستهجانه لحملات نظام البعث ضد المسلمين

النشطين بواسطة رسائل شفوية ينقلها عنه مساعدوه السياسيون.

وفي كل مرة كان النظام يحذر الإمام الخميني من مغبة التدخل في شؤون العراق الداخلية، ولإظهار سخطه واحتجاجه كان الإمام يمتنع عن إعطاء دروسه في الحوزة لعدة أيام.

وقد أيقظت الثورة الإسلامية في إيران الحماس السياسي لدى المرجعية الدينية في العراق حيث شعرت أنَّها جزءٌ لا يتجزأ من الانتفاضة الإيرانية خصوصاً، وأنَّ هذه الثورة قد أوضحت وبجلاء أنَّه من الممكن تحدي وهزيمة الأنظمة المستبدة وأنَّ الحركة والفكر الإسلاميين باستطاعتهما قيادة الجماهير وتحقيق حلمها في أقامة دولة إسلامية.

وأثبتت الثورة أنَّ الدماء التي سفكت خلالها لم تذهب سدى، وإنما على العكس، فقد حفزت آخرين على الانضمام للثورة والدفاع عنها، وهكذا تحولت الأعمال القمعية التي مارسها النظام السابق لسحق الثورة سلاحاً ضده عجلت بسقوطه في النهاية.

تحت ضغط نظام الشاه قام البعث بترحيل الإمام الخميني من العراق إلى فرنسا وعشية سفره زاره السيد الصدر متحدياً النطاق المضروب حول بيت الإمام الخميني من قبل رجال الأمن(٤١) وقد حملت هذه الزيارة أكثر من مدلول وذات أهمية بالغة فضلاً عن الدعم المعنوي الذي حظي به الإمام الخميني من قبل السيد الصدر. فإن زيارة مرجع لمرجع آخر كانت غير متعارف عليها في عُرف الحوزة. بعد أحداث الثورة الإيرانية، برز السيد الصدر الزعامة في الساحة السياسة العراقية وكمتحد سياسي رئيس لنظام البعث ليقود ويستنهض كل النشاطات المعادية للنظام خلال السنتين القادمتين.

اظهر السيد الصدر دعمه اللامحدود وتحمسه الشديد للثورة الإيرانية

بنشاطات واسعة وعديدة (٤٢) أولها: أنَّه أصدر بياناً مطولا يساند فيه الثورة الإسلامية والشعب الإيراني ويمجد بالإمام الخميني الذي كان وقتها متواجداً في باريس.(٤٣)

ثانيها: ومباشرة بعد انتصار الثورة وعودة الإمام الخميني إلى إيران أرسل الشهيد الصدر أحد أخلص معاونيه وهو السيد محمود الهاشمي كممثل شخصي له للاتصال بقيادة الثورة.(٤٤) وعدَّت الحكومة البعثية هذه النشاطات خرقاً فاضحاً لسياستها بالانتظار والتريث نحو مجريات الأحداث في إيران.(٤٥) زيادة على ذلك استنكر السيد الصدر سياسة حكومة البعث عندما أشعلت نار الفتنة والاضطرابات لدى عرب إيران بحجة المطالبة بحقوقهم من الحكومة الثورة بقيادة أية الله الخميني، وأرسل برقية معنونة إلى عرب إيران يدعوهم فيها إلى طاعة قادة الثورة الإسلامية وذلك باعتبار إنَّ الجمهورية الإسلامية هي امتداداً للحكومة التي أرسى قواعدها الرسول الأعظم ﷺ والتي تعايشت فيها كل الطوائف والجماعات العرقية بمحبة ووئام(٤٦).

ثالثها: بادر السيد الصدر بكتابة ست بحوث متنوعة فيما يتعلق بالأسس والقواعد التي تقوم عليها الحكومة الإسلامية، وقد طبعت هذه البحوث بعد ذلك في كتاب بعنوان "الإسلام يقود الحياة".

أحد هذه البحوث تتناول دراسة فقهية حول الأسس الشرعية والدستورية لقيام حكومة إسلامية، وأوجز السيد لصدر في هذا البحث تركيبة الحكومة الإسلامية ووظائف السلطات المتعددة فيها ومسؤوليات المرجع الأعلى في الدولة الإسلامية وبين شرعية صلاحيته المطلقة وفق الفقه الشيعي. وقد كانت أفكار السيد الصدر متوافقة مع ما كان يدعو إليه الإمام الخميني حول ما كان يعرف في الدراسات الفقهية بولاية الفقيه. ويبدو إنَّ بحث السيد الصدر هذا

كان له الأثر البالغ على واضعي دستور الجمهورية الإسلامية في إيران، حيث تجد وبسهولة أفكار وطروحات السيد الصدر حول تركيبة الحكومة الإسلامية متطابقة مع ما جاء في المسودة النهائية للدستور الإيراني.(٤٧)

البحث الثاني المهم للسيد الصدر كان بعنوان "خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء" وهي رسالة في النظرية السياسية، في الوقت نفسه تبين حقوق وواجبات الراعي والرعية في الحكومة الإسلامية. وهذا البحث يعدُّ المرجع الشيعي الأعلى الخليفة الشرعي للنبي والأئمة المعصومين عليهم السلام، ولكنه لا يحمل صلاحية التشريع، وإنما له صلاحية تفسير الأحكام الإسلامية بما يتلائم والظروف الموضوعية المستجدة.

من ناحية أخرى تبحث هذه الرسالة هدف الإنسان في الحياة إلا وهو تطبيق أوامر الله سبحانه وتعالى من خلال خلق مناخ اجتماعي صالح على الأرض. ويعتبر الإنسان من أفضل مخلوقات الله سبحانه وتعالى لقدرته على تحمل مسؤولياته من خلال ممارسته لأرادته بحرية تامة. ودور هذا المخلوق على الأرض هي كونه خليفة الله سبحانه وتعالى، ويبقى دور المصطفين (من أنبياء وأئمة معصومين) هي هداية هذا الإنسان في رسالته العظيمة الخالدة في الأرض.

وعليه فإنَّ مهمة (المرجع الأعلى) في الدولة هي كونه نائباً عن المعصومين والمصطفين، فهو المشرف والمراقب على أمور الناس وسلامة المسيرة الإنسانية في حياته في الأرض وتحقيق دور الخلافة كما رسمه الباري لهم.(٤٨)

البحث الثالث المعنون "منابع القدرة في الدولة الإسلامية" كان محاولة للسيد الصدر بيَّن فيها القدرات الضخمة التي يمتلكها نظام الحكم الإسلامي في قيادة الأمة إلى الإمام واقتلاع جذور التخلف والانحطاط. ولتحقيق هذا الهدف

اشترط إلا يحكم المسلمين أيّ شكل آخر من إشكال الحكومات الوضعية. وعزى مقومات القوة هذه إلى:

١- الطبيعة الفكرية (الإيديولوجية) للدولة الإسلامية.

٢- الطبيعة النفسية للمسلم المرتبطة بالرسالة السماوية.

لم يكن هدف الحكومة الإسلامية مادياً فحسب وإنما لها هدف روحي كذلك. وبتعبير أدق هنالك تسديد رباني حيث، ويدعو السيد الصدر لأنَّ تكون سياسات الحكومة الإسلامية متوافقة والمعايير الأخلاقية التي تصون العدالة في المجتمع، وعليه فإنَّ كل مسلم مرتبط تاريخياً وأخلاقياً وعاطفياً بالحكومة الإسلامية.

وعالجت البحوث الثلاثة الباقية العناصر الأساسية لاقتصاد الدولة الإسلامية وتركيبة نظامه المصرفي، وهي مطابقة بشكل يكاد يكون تاماً مع طروحات السيد الصدر التي قدمها قبل عشرين عاماً، وهذا يؤكد تطابق نظريات الشهيد الصدر مع اجتهاداته المبكرة حول هذه المسائل.

في ذلك الوقت بدأ السيد الصدر بإلقاء دروس ذات مغزًى سياسي في الحوزة. وقد جمعت هذه تقريرات التي بلغ عددها أربع عشرة محاضرة في مجلد واحد تحت اسم "مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن". ومن ضمن ما تطرق له في تلك المحاضرات عملية التغيير الاجتماعي وفلسفة التأريخ مستلهماً نظريته من آيات الذكر الحكيم.

شهيدنا السعيد ونظام صدام:ـ

هنا سأعرض الرسالة التي بعث بها الطاغية إلى السيد العالم محمد باقر الصدر قدس سره.

((لعلك تعلم إن مبادئ حزبنا منبثقة عن روح الإسلام وان شعاراتنا التي نطرحها هي شعارات ذلك الدين السمح لكن بلغة العصر. وان الذي نريد تطبيقه على واقع الحياة على الأقل في وقتنا هذا هو أحكام الشريعة الغراء ولكن بلون متطور رائد يلائم هذه الحياة الصاعدة وإننا نحب علماء الإسلام وندعمهم ما داموا لا يتدخلون فيما لا يعنيهم من شؤون السياسة والدولة ولا ندري بعد ذلك لماذا حرمتم حزبنا على الناس؟، ولماذا دعوتم إلى القيام ضدنا ولماذا أيدتم أعدائنا في إيران؟. وقد أنذرناكم ونصحنا لكم واعذرنا إليكم في هذه الأمور جميعاً غير أنكم أبيتم وأصررتم ورفضتم ألا طريق العناد مما يجعل قيادة هذه الثورة تشعر بأنكم خصمها العنيد وعدوها اللدود وانتم تعرفون ما موقفها ممن يناصبها العداء وحكمه في قانونها؟. وقد اقترحت رأفة بكم أن نعرض عليكم أمور إن انتم نزلتم على رأينا فيها أمنتم حكم القانون وكان لكم ما تحبون من المكانة العظيمة والجاه الكبير والمنزلة الرفيعة لدى ألدوله ومسؤوليتها تقضي بها كل حاجاتكم وتلبي كل رغباتكم، وان أبيتم كان ما قد تعلمون من حكمها نافذاً فيكم سارياً عليكم مهما كانت الأحوال وأمورنا التي نختار منها ثلاثة لا يكلفكم إلا تنفيذها أكثر من سطور قليله يخطها قلمكم لتنشر في الصحف الرسمية وحديث تلفزيوني جواباً على تلك الاقتراحات لتعود بعد ذلك مكرمين معززين من حيث انتم أتيتم لتروا من بعدها من فنون التعظيم والتكريم ما لم تره عيونكم وما لم يخطر على بالكم.
- أول تلك الأمور هوان تعلنوا عن تأييدكم ورضاكم عن الحزب القائد وثورته المظفرة. - ثانيهما أن تعلنوا تنازلكم عن التدخل في الشؤون السياسية وتعترفوا بان الإسلام لا ربط له بشؤون ألدوله. - ثالثهما أن تعلنوا تنازلكم عن تأييد الحكومة القائمة في إيران وتظهروا تأييدكم لموقف العراق منها.وهذه الأمور كما ترون يسيرة التنفيذ، كثيرة الأثر جمة النفع لكم من قبلنا فلا تضيعوا هذه الفرصة التي بذلتها رحمة الثورة لكم .

رئيس مجلس قيادة الثورة، صدام حسين)).

وكان الرد الحاسم

نص رسالة الشهيد آية الله السيد محمد باقر الصدر إلى صدام حسين

لقد كنت احسب أنكم تعقلون القول وتتعقلون، فيقل عزمكم إلزام الحجة، ويقهر غلوانكم وضوح البرهان، فقد وعظتكم بالمواعظ الشافية ارجوا صلاحكم، وكاشفتكم من صادق النصح ما فيه فلاحكم، وأبنت لكم من امثلات الله ما هو حسبكم زاجراً لكم لو كنتم تخافون المعاد ونشرت لكم من مكنون علمي ما يبلوا غلوتكم لو كنتم إلى الحقيقة ظمأ، ويشفي سقمكم لو كنتم تعلمون أنكم مرضى ضلال ويحييكم بعد موتكم لو كنتم تشعرون أنكم صرعى غواية حتى حصحص أمركم وصرح مكنونكم أضل سبيلاً من الإنعام السائبة واقسي قلوباً من الحجارة الخاوية واشره إلى الظلم والعدوان من كواسر السباع لا تزدادون مع المواعظ إلا غياً ومع الزواجر إلا بغياً أشباه اليهود وإتباع الشيطان، أعداء الرحمان قد نصبتم له الحرب الضروس وشننتم على حرماته الغارة العناء وتربصتم بأولياءه كل دائرة وبسطتم إليهم أيديكم بكل مساءة وقعدتم لهم كل مرصد وأخذتموهم على الشبهات وقتلتموهم على الظنة على سنن آبائكم الأولين، تقتفون آثارهم وتنهجون سبيلهم لا يردعكم عن كبائر الإثم رادع ولا يزعجهم عن عظائم الجرم وازع، قد ركبتم ظهور الأهواء فتحولت بكم في المهالك واتبعتم داعي الشهوات فأوردكم أسوأ المسالك، قد نصبتم حبائل المكر وأقمتم كمائن الغدر، لكم في كل ارض صريع وفي كل دار فجيع تخضمون مال الله فاكهين وتكرعون في دماء الأبرياء شرهين، فانتم والله كالخشب اليابس أعيى على التقويم أو كالصخر الجامس انأى عن التفهيم فما بعد ذلك يأساً منكم. شذاذ الآفاق، وأوباش الخلق، وسوء البرية وعبده الطاغوت وأحفاد الفراعنة، وإذناب المستعبدين.أظننتم أنكم بالموت تخيفونني وبكر القتل تلونني، وليس الموت إلا سنة الله في خلقه

(كلاً على حياضه واردون) أوليس القتل على أيدي الظالمين إلا كرامة الله لعباده المخلصين، فاجمعوا أمركم وكيدوا كيدكم واسعوا سعيكم فأمركم إلى تباب وموعدكم سوء العذاب لا تنالون من أمرنا ولا تطفئون نورنا وأعجب ما في أمركم مجيئكم لي بحيلة الناصحين تنتقون القول وتزورون البيان، تعدونني خير العاجلة برضاكم وثواب الدنايا بهواكم. تريدون مني أن أبيع الحق بالباطل وان اشتري طاعة الله بطاعتكم وان أسخطه وأرضيكم وان اخسر الحياة الباقيات لأربح الحطام الزائل، ضللت إذا وما أنا من المهتدين، تباً لكم ولما تريدون، أظننتم أن الإسلام عندي شيء من المتاع يشترى ويباع؟، أو فيه شيء من عرض الدنيا يؤخذ ويعطى كي تعرضون لي فيه باهض الثمن جاهلين وتمنونني عليه زخ ارف خادعة من الطين، أتعدونني عليه وتوعدون وترغبونني عنه فوالله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا اقر لكم إقرار العبيد، فان كان عندكم غير الموت ما تخيفونني به فأمهلوا به أو كان لديكم سوى القتل تكيدونني به فكيدون ولا تنتظرون لتبصروا إن لي بالجبال الشم شبيهاً من التعالي وان عندي من الرواسي شامخات متبلى من الرسوخ والثبات، قولوا لمن بعثكم ومن وراء اسيادهم إن دون ما يريدون من الصدر آلف قتلة بالسيف أو خضباً أمر وان الذي يريدونه مني نوعاً من المحال لا تبلغوه على أية حال فوالله لن تلبثوا بعد قتلي إلا أذلة خائفين تهول أهوالكم وتتقلب أحوالكم ويسلط الله عليكم من يجرعكم مرارة الذل والهوان يسيقكم مصاب الهزيمة والخسران ويذيقكم ما لم تحتسبوه من طعم العناء ويريكم ما لم ترتجوه من البلاء ولا يزال بكم على هذا الحال حتى يحول بكم شر فأل جموع مثبورة صرعى في الروابي والفلوات حتى إذا انقضى عديدكم وقل حديدكم ودمدم عليكم مدمر عروشكم وترككم أيادي سبأ اشتات بين ما اكلتم بواترهم ومن هاموا على وجوههم في الأمصار فولوا إلى شتى الأمصار واورث الله

المستضعفين أرضكم وديياركم وأموالكم فإذا قد أمسيتم لعنة تجدد على أفواه الناس وصفحة سوداء في أحشاء التأريخ.

هذه المراسلات تبين الخط الإلهي للسيد قدس سره والفكر الماسوني لصدام الذي تربى في مدارس عفلق التي كانت تحتقر الإسلام ولا تريد به وبأهله خيرا حتى إذا كان يوم التنفيذ لسلطة البعث بأبشع جريمة يندى لها جبين الأمة يوم ١٩٨٠/٤/٩ وهو نفس يوم سقوط صنم صدام فإليك يا أبا جعفر سلام وتحيه لشموخك وصبرك وحشرك الله أنت وأختك العلوية مع محمد وال محمد.